

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

تحقيق الرُّبِّيَا

عبد الحميد جودة السحار

لم يسمع يوسفُ كلامَ امرأةِ العزيز ، لأنه ما كان يحبُّ أن يخونَ سيِّدَهُ الذي ربَّاهُ . فدبَّرتْ له امرأةُ العزيز مَكيدةً عندَ زوجها ، وقالت له : إنَّ النساءَ في كلِّ مكانٍ يتحدَّثنَ عني وعن يوسفَ حديثًا رديئًا ، ويُقلنَ كلامًا مؤذيًا . فالأَحْسَنُ أن يدخلَ السجنَ ، حتى يعرفَ الناسُ أنَّ يوسفَ هو الذي كان يريدُ الاعتداءَ عليَّ ، ولهذا سُجنَ .

عندَ ذلك أُدخلَ يوسفُ السجنَ ، ودخلَ السجنَ معه فتَيان ، فتعرَّفا به ، وصارَ الجميعُ أصحابًا . وفي ليلةٍ نامَ هذانِ الفتَيان ، فرأى كلُّ منهما حلمًا لم يعرفْ له تفسيرًا .

وفي الصباح طلبا من يوسفَ أن يفسِّرَ لهما الرؤيا .

قال أحدهما :

- لقد رأيتني في المنام أعصر عنباً ، وأصنع منه خمرًا ، وأسقي الملك .

وقال الآخر :

- رأيت على رأسي خبزًا تأكل الطير منه ، فأخبرنا بتأويل هذا الحلم ، إنا نراك رجلاً طيباً صالحاً .

فقال لهما يوسف :

- مهما رأيتما من حلم فإنني أعبره لكما قبل وقوعه ، فيكون كما أقول ، وهذا من تعليم الله لي لأنني مؤمن به ، موحد له ، متبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء .

يا صاحبي السجن .. أيهما أفضل : أرباب كثيرون متفرقون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، أو

إله واحد عظيم قادر ؟ إن الآلهة التي تعبدونها آلهة كاذبة ، والله أمرنا أن نعبدَهُ هو لأنه خلقنا ورزقنا . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿ يا صاحبي السجن ، أمّا أحدكما فيسقى ربه (يعني سيده) خمرًا ، وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » .

وعرف يوسف أن ساقى الملك هو الذي سينجو من السجن ، فقال له :

- اذكر أمري وما أنا فيه من السجن دون ذنب عند الملك .

٢

خرج ساقى الملك من السجن ، وعلب الرجل الآخر ، كما قال يوسف . ولكن الساقى نسي أن يذكر للملك أمر يوسف ، فبقي في السجن عدة سنين .

وفي ذات ليلة نام الملك ، فرأى في نومه أنه جالس على شاطئ النهر ، وقد خرجت منه سبع بقرات سمينه ، ثم خرجت بعدها سبع بقرات هزيلة ، وذهبت البقرات الهزيلة إلى البقرات السمينه فأكلتها . فقام الملك من نومه مفزوعا . ولما ذهب خوفه عاد إلى نومه فرأى في الحلم سبع سنبلات خضر ، تأكلها سبع سنبلات يابسات ، فقام من نومه وهو خائف .

وفي الصباح جمع الملك رجاله وقص عليهم ما رآه في حلمه . فلم يعرف أحدهم كيف يفسر هذا الحلم ، عندئذ تذكر الساقى أن يوسف يجيد تفسير الأحلام . فقال للملك :

- أرسلنى إلى يوسف فى السجن ، وأنا أفسر لكم هذا الحلم .

فأرسله الملك إلى يوسف . فقال له :

« يوسف أيها الصديق ، أفتنا (أى أخبرنا) فى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلنى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » .

فقال له يوسف :

- ستأتى سبع سنوات يكثر فيها الزرع والثمار ، ثم يأتى بعدها سبع سنين يقل فيها الزرع والثمار ، فعليكم أن تزرعوا باجتهاد سبع سنوات ، فإذا حصدتم القمح فاتركوه فى سنبله ، إلا القمح الذى تحتاجون إليه لتأكلوه ، فإذا جاءت السنون التى لا زرع فيها ، أكلتم مما ادخرتم فى سنوات الرخاء . ثم تأتى بعد ذلك سنة رخاء يعصر فيها الناس العنب والقصب والسّمسم ويشبعون ويتمتعون .

وعاد الرجل إلى الملك وذكر له ما قاله يوسف ،
فأعجبَ الملكُ به وأرسلَ ساقِيه إلى يوسف ، وأمره
بأن يُحضِرَه ليكونَ من أصحابِ الملك . فلم يقبل
يوسف أن يذهبَ إلى الملكِ قبلَ أن يُثبِتَ له أنه حُبسَ
ظُلماً . فقال للرجل :

- ارجع إلى الملكِ واسأله أن يحضرَ النساءَ اللاتي
قَطَّعنَ أيديهنَّ ، ويسألَهنَّ عن حقيقة ما حدثَ مِنِّي .
ليعلمَ أنني بريءٌ مما نُسِبَ إليَّ .

فأرسلَ الملكُ إلى النسوةِ وسألَهنَّ عن يوسف ، فقلنَ :
- إنه رجلٌ كريمٌ ، ولم يحدثْ منه شيءٌ قبيحٌ .

ورأتِ امرأةَ العزيزِ أن الحقَّ قد ظهرَ ، فقالت :

- أنا طلبتُه لنفسِي ، ولكنّه امتنعَ . إنه بريءٌ ؛ وإنه
حُبسَ ظُلماً .

فلما علمَ الملكُ ذلكَ ، عرفَ أن يوسفَ رجلٌ ذكيٌّ

وأمينٌ ، ورأى أن يستفيدَ من علمه وأمانته ، فقال :
اثنوني به .

وجاءَ يوسف وكلمَ الملكَ ، فظهرَ له أن يوسفَ ذكيٌّ
مُخلصٌ أمينٌ ، فقال له :
- إنك اليومَ مُعَزَّزٌ مُكْرَمٌ .

فقال له يوسف :

- إنَّ البلادَ مُقبِلَةٌ على رخاءٍ ثم جدبٍ ، فاجعلني
على خزائنِ الدولة ، لأنني أمينٌ على ما تحت يدي ،
أصرفه في الصَّوابِ ، وأحفظُ الباقي لأيامِ الشِّدَّةِ .

٣

أصبحَ يوسف وزيراً للملكِ ، وأصبحَ كلُّ شيءٍ في
يده .

ومرَّتْ سنواتُ الرِّخاءِ وجاءتْ سنون الشِّدَّةِ ، فأخذَ
يوسفُ يوزِّعُ على الناسِ من القمحِ الذي خزنه من أيامِ

الرَّخَاءَ ، وَأَحْسَتِ الْبِلَادُ بِالشَّدَّةِ ، فَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ
مِنَ الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ لِمِصْرَ لِيَأْخُذُوا حَاجَتَهُمْ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ، دَخَلَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ ، فَعَرَفَهُمْ
وَلَمْ يَعْرِفُوهُ . فَمَا كَانُوا يَحْسِبُونَ أَنَّ يَوْسُفَ يُصْبِحُ
وَزِيرًا ، وَسَأَلَهُمْ :

- كَمْ عَدَدُكُمْ ؟

فَقَالُوا لَهُ : نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا . ذَهَبَ مِنَّا وَاحِدٌ ،
وَصَغِيرُنَا عِنْدَ أَبِينَا .

فَأَكْرَمَهُمْ وَأَطْعَمَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : اذْهَبُوا فَأَتُونِي
بِأَخِيكُمْ مَعَكُمْ لِأَعْطِيَكُمْ مَا طَلَبْتُمْ . فَإِذَا لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ،
فَلَنْ أُعْطِيَكُمْ شَيْئًا .

فَقَالُوا :

- سَنَجْتَهِدُ فِي مَجِيئِهِ مَعَنَا .

وَذَهَبُوا يَسْتَعِدُّونَ لِلْعُودَةِ ، فَأَمَرَ يَوْسُفُ خُدَمَهُ أَنْ

يَضَعُوا لِإِخْوَتِهِ بَضَاعَتَهُمُ الَّتِي جَاءُوا بِهَا لِيَبَادِلُوا
عَلَيْهَا بِالْقَمْحِ ، فِي أَوْعِيَتِهِمْ .

وَعَادُوا إِلَى آبِيهِمْ ، فَلَمَّا قَابَلُوهُ قَالُوا لَهُ :

- إِنَّ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا ، فَلَنْ يُعْطُونَا شَيْئًا .

فَقَالَ لَهُمْ :

- إِنِّي لَا آمَنُ عَلَيْهِ أَحَدًا ، وَأَخْشَى أَنْ تَفْعَلُوا بِهِ

مَا فَعَلْتُمْ بِيَوْسُفَ .

فَقَالُوا : يَا أَبَانَا ، إِنْ مَا نَقُولُهُ صَحِيحٌ ، وَهَذِهِ

بَضَاعَتُنَا الَّتِي أَخَذْنَاهَا لِنَبَادِلَ عَلَيْهَا قَدْ رَدَّهَا الْوَزِيرُ

وَلَمْ يَقْبَلْهَا .

فَقَالَ :

- لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تَحْلِفُوا لِي أَنْ تَحَافِظُوا

عَلَيْهِ .

فَحْلَفُوا أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى أَخِيهِمْ ، وَاسْتَعَدُّ

للذهاب إلى مصر ليحضروا منها القمح . فقال لهم
أبوهم :

— لا تدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن
ادخلوا من أبواب متفرقة .

قال لهم هذا ، لأنه كان يخشى أن يصيبهم شرٌّ ،
فلا يصيبهم كلهم في وقت واحد .

وسافروا حتى إذا دخلوا على يوسف ، أخذ
يوسف بنيامين بعيداً ، وقال له :

— أنا أخوك يوسف ، فلا تذكر ذلك لإخوتك ..

فسرّ بنيامين بقاء أخيه ، وأراد يوسف أن يأخذ
بنيامين منهم ، فقال لخدمته :

— ضعوا سقاية الملك التي يشرب بها في متاع
بنيامين .

فوضعوها .

وحزم إخوة يوسف أمتعتهم ، وحملوها على
الجمال وخرجوا .

وعند ذلك نادى عليهم أحد الحراس قائلاً : إنكم
لسارقون .

فعادوا نحو المنادى وسألوا : ماذا ضاع منكم ؟

قال : سرقتم سقاية الملك التي يشرب بها .

قالوا : فتشونا ، فما جئنا لنسرق .

قال : فما جزاء من وجدت معه ؟

قالوا : جزاؤه أن تأخذوه أسيراً .

وجاء يوسف ، وفتش أمتعتهم قبل متاع أخيه ، ثم

فتش متاع أخيه واستخرج منه سقاية الملك ، وأخذ

أخاه جزاءً على وجود السقاية في متاعه .

وقال لإخوته :

« إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

فَعَرَفَ يَوْسُفَ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَا تَنْكَشِفَ حِيلَتُهُ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

« أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » .
وَتَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ حَلَفُوا لِأَبِيهِمْ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى أَخِيهِمْ ، فَقَالُوا لِيُوسُفَ :
« يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ، إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » .
قَالَ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذْنٌ لِظَالِمُونَ » .

وَلَمَّا يَتَسَوَّاهُ مِنْ أَنْ يَأْخُذُوهُ ، اجْتَمَعُوا يَتَشَاوَرُونَ ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ :

- لَقَدْ حَلَفْنَا أَنْ نَحَافِظَ عَلَيْهِ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقَابِلَ أَبَانَا وَبَنِيَامِينَ لَيْسَ مَعِيَ .

- وَمَاذَا سَتَفْعَلُ ؟

- سَأَبْقَى هُنَا حَتَّى أَرُدَّ أَخِي ، أَوْ يَأْذَنَ لِي أَبِي بِالْعُودَةِ .

- وَمَاذَا نَفْعَلُ نَحْنُ ؟

- « ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ ، فَقُولُوا : يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » .

فَعَادُوا إِلَى آبَائِهِمْ ، فَلَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْ بَنِيَامِينَ ، ذَكَرُوا لَهُ مَا حَصَلَ ، فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ ، وَقَالَ لَهُمْ :

- إِنَّ ابْنِي لَا يَسْرِقُ .

قَالُوا : اسْأَلِ النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَنَا ، فَقَدْ اشتهر هَذَا الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ .

قَالَ : لَقَدْ فَعَلْتُمْ بِهِ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَأْتِيَنِي اللَّهُ بِهِمْ جَمِيعًا .

حزن يعقوب على بنيامين ، وتجدد حزنه على يوسف ، وأخذ يبكي حتى فقد بصره ، ولاحظ أبنائه كثرة بكائه .. فقالوا له :

— ستظل تذكر يوسف وتبكي عليه حتى تضعف أو تموت ، فالأحسن أن تترك البكاء .

فقال لهم : لست أشكو إليكم ، ولا إلى أحد من الناس ، إنما أشكو إلى الله ، وأعلم أن الله سيرحمي ويخلصني مما أنا فيه . يا بني ، اذهبوا فابحثوا عن يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من الفرج بعد الشدة ، لأنه لا يئس من فرج الله إلا الكافرون .

عاد إخوة يوسف إلى مصر يطلبون من العزيز أن يتصدق عليهم ، ويعفو عن أخيه . فلما دخلوا عليه ، قالوا له :

— يَا أَيُّهَا الْعَزِيز ، أصبحنا في حال شديدة ، وليس معنا إلا بضاعة رديئة ، فأعطنا مما عندك ، وتصدق علينا برء أخينا .

فقال لهم يوسف :

« هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ؟ » .

فنظروا إليه طويلاً ثم قالوا :

« أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفَ ؟ » .

« قَالَ : أَنَا يُوسُفَ ، وَهَذَا أَخِي .. قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنَا » .

فقالوا له :

- واللّٰه لقد فضّلَكَ اللّٰه علينا . فسامِحنا فيما
فعلناه معَكَ يا أخانا .

قال :

- لا تخافوا ، فلنْ أعاقِبْكُمْ على ما كان منكم ،
واليوم يغفرُ اللّٰه لكم وهو أرحمُ الرَّاحِمِينَ .
وسأَهم عن أبيه ، فقالوا له :
- لقد فَقَدَ بصره من كثرة البكاء عليك .

فخلَعَ قميصَه وأعطاه لأخيه الذى كان قد قال
لهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه فى الجُبِّ ، وقال له :
اذهبْ بقميصى هذا ، فألقه على وجهِ أبى يأتِ
بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين ، ليعيشوا هنا فى
مصر فى هذا الرِّخاء العظيم .

٦

وقف يعقوب ينتظر عودة أبنائه ، فلما قربوا ،
استنشق الهواء بقوة ، وقال لمن حوله :
- إِنِّى أَشَمُّ رِيح يوسف .

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا :
- ستعود إلى الوهم القديم . لقد مات يوسف
وأكله الذئب من سنين .

ووصل أبناء يعقوب ، فوضعوا قميص يوسف على
وجهه ، فرجع إليه بصره ، وقال لأولاده :
- ألم أقل لكم ، إِنِّى أعلمُ أَنَّ اللّٰه سيجمَعُ شملى يوسف .
قالوا : يا أبانا ، استغفر لنا ربنا .

قال : سوف أستغفرُ لكم ربِّى ، إِنَّه هو الغفور الرحيم .
وحمل يعقوبُ أَهْلَهُ وذهب إلى مصر . وقبل أن

يَبْلُغَهَا ، قَابِلَهُ يَوْسُفُ فِي الطَّرِيقِ ، وَأَكْرَمَ أَبَوَيْهِ ،
وَسَارَ مَعَهُمَا حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى مِصْرَ قَالَ لَهُمْ :
« ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ » .

وَدَخَلَ يَوْسُفُ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ، فَأَنْحَنَى لَهُ أَبُوهُ
وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ تَعْظِيمًا لَهُ ، فَقَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ :
« يَا أَبَتِ ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقًّا » ، وَجَعَلَنِي حَاكِمًا بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَنِي مِنَ
السَّجْنِ ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الصَّحَرَاءِ ، بَعْدَ أَنْ فَرَّقَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَوْ جَدَّ أَسْبَابَهُ وَحَقَّقَهُ .